

وصف الحجاز في رحلة الحج المغربية

د. موسى هيصام *

المخلص:

مثلت رحلة العمر كما يصطلح على تسميتها لدى كل من من الله عليهم بشرف زيارة الأماكن المقدسة، وسيلة رئيسية للتواصل بين مختلف مناطق وربوع العالم الإسلامي.

ونظرا لأهميتها الروحية والوجدانية، فقد عدت الرحلة الحجازية التي كانت غايتها الأسمى أداء الركن الأكبر، مصدرا تراثيا وتاريخيا وجغرافيا وأثريا هاماً، عبّر من خلاله المغاربة عن الارتباط الوثيق الذي جمع طرفي الأمة الإسلامية شرقها وغربها، ساعين من خلال ما دونوه من ملاحظات ضمن مصنفات الرحلة، إلى نقل حيثياتها إلى من ينتظرونهم حال عودتهم، لعلهم يطفنون بها نار الشوق المتوقدة في نفوس أهلهم، وهم يحلمون بزيارة بيت الله الحرام، وقبر الرسول صلى الله عليه وسلم ومسجده.

فشكلت هذه الرحلة موسوعة شملت التاريخ والجغرافيا والتراث من خلال الوصف الدقيق لأماكن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم و صحابته قد وطأها أقدامهم، فمثلت بذلك رصيذا عجت به أغلب كتب الرحلة، التي قادت الباحثين للتعرف على حواضر الحجاز وربوعه المترامية الأطراف، وهو ما عملت على التنقيب فيه من خلال مقالي الموسوم بـ: وصف الحجاز في رحلة الحج المغربية.

الكلمات الدالة:

الحجاز، رحلة الحج المغربية، المدينة المنورة، مكة المكرمة.

غلبت رحلة المغاربة إلى المشرق ومنها الحجاز على وجه الخصوص، على نظيرتها المشرقية، لأسباب رئيسية عدة نذكر منها:

أولاً: لأداء فريضة الحج، مصداقاً لقوله تعالى: " وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ "¹.

ثانياً: النهل من منابع العلم في الحرمين الشريفين مكة والمدينة.

ثالثاً: التعرف على مختلف المسالك والممالك التي سوف يصادفونها في طريقهم، وهو مرتبط بقيم الإسلام والثقافة التي امتلكوها في هذا المجال، مصداقاً لقوله تعالى: " قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ "².

رابعاً: ارتباط رحلة الحج وتداخلها مع الاسترزاق بممارسة التجارة وما يماثلها، من خلال ما كانت تحمله قوافلهم من مواد مختلفة، إن في رحلة الذهاب أو الإياب، لقوله تعالى: " وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ، لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ "³.

وعليه تعددت أغراض الرحلة ودوافعها من شخص لآخر، وهي في العموم لا تخرج على أن تكون إما:

لدوافع دينية: بارتحال غالب الرحالة للأماكن المقدسة لأداء فريضة الحج، باعتباره فريضة على كل مسلم ولا يكتمل إسلام المرء دونها، فهي تطهير للنفس بالتوبة والتلبية. فرووا أن من حقوق الحاج على أخيه الحاج أن يحدد له معالم الطرق التي تقوده لتأدية هذه الشعيرة، وتبيان المخاطر التي قد تعترض المقدم عليها.

أو لدوافع علمية تعليمية: الاستزادة من العلم بأغراضه وتصنيفاته بمختلف المناطق التي ينزل بها الحاج.

وهو ما أكدته العلامة عبد الرحمن ابن خلدون في مقدمته عند تطرقه للرحلة المغربية بقوله: " كانت غالباً إلى الحجاز، وهو منتهى سفرهم، والمدينة يومئذ دار العلم، ومنها

¹ الحج، الآية ٢٧.

² النمل، الآية: ٦٩.

³ الحج، الآية: ٢٧-٢٨.

خرج إلى العراق، ولم يكن العراق في طريقهم، فاقترضوا على الأخذ عن علماء المدينة^٤.

أو لدوافع ثقافية: لاكتساب الخبرة بالمسالك والطبائع، والتعرف على مختلف المعالم، كالأثار، والمنارات والأبراج وغيرها.

ومنه تنوعت الرحلات إلى خمسة عشر نوعا، نذكر منها:

الرحلات الحجازية: التي ارتبطت بأداء مناسك الحج والعمرة، باعتبارهما شعيرتين دينيتين.

الرحلات السياحية التي غايتها صاحبها سفره للاكتشاف مطلق، وقد زحرت به خزائن المختلفة بما ألف فيه.

الرحلات العامة التي جمعت بين أغراض عدة، على غرار رحلة ابن بطوطة، الذي كان قصده الحج، ثم استهواه الترحال والسياحة، فكانت رحلته حجازية، سفريّة، استكشافية^٥.

الرحلة الحجازية في أدبيات الحجاج المغاربة:

وفي سياق ذلك اهتم الحجاج عموما، والرحالة المغاربة منهم خصوصا، والذين جمعوا بين مختلف العلوم بالوصف والتأريخ للأحداث المختلفة، إما بالوقوف عليها حقيقة أو سماعا من سبقوهم في هذه الرحلة المباركة، أو استنباطا من المصنفات المختلفة، سواء التاريخية منها أو الجغرافية، ولذا فهي تعد مصادر هامة للتعرف على مختلف المواقع، وما شهدته من أحداث عبر الأزمنة التاريخية المتعاقبة.

فالرحلة بذلك تعد بحرا من المعارف والاكتشافات، من خلال تدوين أصحابها لمختلف الملامح الاقتصادية والمعمارية والثقافية والجغرافية التي خدموا بواسطتها غيرهم من الذين عزموا على تأدية الفريضة الخامسة من فرائض الإسلام ألا وهي الحج، وهذه المعالم المحددة من قبلهم لا تزال تستثمر إلى اليوم لضبط المسالك، وتحديد المناسك على غرار المواقيت المكانية التي خصصت لحجاج كل جهة من جهات العالم الإسلامي^٦.

^٤ عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ط ١٩٧٩، ص ٨٠٥.

^٥ أبو عبد الله الكتاني الحسني، الرحلة السامية إلى الاسكندرية ومصر والحجاز والبلاد الشامية، تخريج محمد بن حمزة الكتاني، وتقديم محمد بن عزوز، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، المغرب الأقصى، نشر دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ص ١١، ١٢.

^٦ أنظر الخريطة المرفقة بهذا البحث والتي تحدد الميقات المكانية للحجاج كل الجهات.

وعليه تتابعت أفواج الرحالة المغاربة نحو وجهات مختلفة، أبرزها على الإطلاق الرحلة نحو الحجاز، فلا تخلو أي ترجمة لعالم ما أو حاج أو رحالة، إلا واقتترنت بوصف دقيق لما صادفوه في تلك الرحلات على تنوع أسبابها وأصحابها وأغراضها، من مسالك وممالك، وما لقوه من محن ومنح بأرض الحجاز.

ومن المحدثين الذين أشاروا وربطوا بين مسالك رحلة الحج المغربية القديمة والحديثة، الشيخ العربي بن عبد الله شنتوف المعسكري (١٨٥٧-١٩٣٠م) ٧، الذي أشار في رحلته إلى القصد من تصنيف مؤلفه بقوله: "لما كان الضرب في الأرض، إنما هو مجرد تمتع بالنظر الظاهري، وحركة في الحس الباطني.. وإني أثبت في تلك الورقات بعض ما شاهدته عينا، أو المحال التي وطأتها قدمي، ملتزما رعاية الحقيقة، والأخذ بالاحتياط.."^٨.

فقد ربط بين ما دونه في رحلته هذه، ومعارف من سبقوه في هذا المجال، فكان من بينها اشارته إلى ميقات أهل المغرب ممن وفد من الغرب، فحددها بـ "رابع"^٩، فقد قدم إليها بحرا مع جمع ممن رافقوه فقال: "ولم تزل الباخرة كذلك سائرة من تونس، بسم الله مجراها ومرساها، إلى أن حادت رابع، فشرع الحجاج في الإحرام على الوجه الشرعي من غسل ووضوء وتلبية"^{١٠}، وقد نظم فيها الشنقيطي أبياتا من الشعر وهو يهيم بالإحرام منها، مما دلّ على أنها الميقات المكاني الذي يحرم منه أهل المغرب جاء في:

فحين جز الفلك رابغا أشاد	بذلك للغسل بإحرام العباد
فازدحم الأنام حول المغتسل	فلا تسل عما يعاني لا تسل
فأعلن الحجاج بالتلبية	من بعد إخلصهم للنبيّة ^{١١}

^٧ جاء التعريف به في مقدمة المخطوط، بأنه: "تأليف تاج العارفين وقدوة السالكين، القطب الرواة سيدنا ومولانا الحاج العربي نجل العارف بالله محمد بن عبد الله"، أنظر العربي بن عبد الله المعسكري، الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى الحجاز، تحقيق مخلوفي ميلود المحفوظي، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف - تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية ٢٠١١ - الجزائر، ط ٢٠١١، ص ١ من المخطوط.

^٨ نفسه، ص ١٧٤.

^٩ لتحديد الميقات المكاني لأهل المغرب وغيرهم، أنظر الخريطة رقم (٢) ضمن الملاحق المرفقة بهذا المقال.

^{١٠} نفسه، ص ١٧٤.

^{١١} محمد مختار السنوسي، أصفى الموارد في تهذيب نظم الرحلة الحجازية، المغرب الأقصى، د. طبت، ص ٥٩.

مسالك الرحلة المغربية وتحديد معالم الحجاز:

وصف العربي المعسكري جدة فقال: "ثم ألفت مراسيها بميناء جدة^{١٢} - أي جدتنا حواء - ثم نزلنا إلى البلد، فكان ميناءها مملوء بالمراكب البحرية التي أتت إلى هذا الثغر حتى اسود وجه البحر لكثرتها، ويحيط بجدة سور.. وهي مركز تجاري لعموم الحجاز منها صادراتها، وإليها وارداتها، وتجارها الرئيسية في الحبوب، خصوصا القمح والدقيق"^{١٣}، واصفا في نفس الوقت نظافة شوارعها، وحرص ساكنتها على كنسها وتنظيفها، وفي الطريق بينها وبين مكة المكرمة، تنتشر المرافق المختلفة، من مقاهي وخانات وغيرها، اعتمدت استراحات للحجاج المارين عبر ربوعها^{١٤}.

سلك المغاربة في رحلاتهم المختلفة لأداء مناسك الحج، مسارات مختلفة منها نزولهم ببلاد الشام، لمرافقة الراكب الشامي، الذي يبدأ منطلقه من دمشق متجه إلى الحجاز، ومنها ما وصفه ابن بطوطة في الرحلة التي رافقها في هذا الراكب، حيث تبدأ في طريقها بقرية الكسوة، فالصنمين بنفس المنطقة، فزرعة (تسمى اليوم درعة)، فبصرى الشام (على الحدود الأردنية السورية اليوم)، فمعان، فعقبة صوان (بالأردن اليوم) التي عدت عنده آخر العمران، ثم بعدها صحراء قاحلة شاسعة، حدد مخاطرها بقوله: "داخلها مفقود، وخارجها مولود"^{١٥}، فعمقها هذا يوصل بتبوك وهي عنده أول بلاد الحجاز^{١٦}، حيث تظهر للعيان معالم الحج ابتداء من مشارف المدينة المنورة، وصولا إلى مكة المكرمة، فكان من عادة الحجاج غداة حلولهم بـ "تبوك" يتجردون من سيوفهم، ومن أي أداة حربية أخرى استعدادا لولوج الأماكن المقدسة، قائلين: "هكذا دخلها الرسول صلى الله عليه وسلم"^{١٧}.

^{١٢} جدة، بالضم مع التشديد، على ساحل بحر اليمن (البحر الأحمر) وصفها الحموي: "بناها وبين مكة ثلاث ليال"، استقرت بها قبيلة قضاة التي تنسب إلى ولد جدة بن حزم بن الحاف ابن قضاة فسمي المكان بجدة، أنظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٢، دار صادر، بيروت، لبنان، دت، ص ص ١١٤، ١١٥.

^{١٣} الحموي، المصدر السابق، ص ص ١٧٥، ١٧٤.

^{١٤} المعسكري، المصدر السابق، ص ص ١٨١، ١٨٠.

^{١٥} ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار المعروفة بـ "رحلة ابن بطوطة"، خلاصة الرحلة بقلم: فؤاد قنديل، نشر وزارة الثقافة، عمان، الأردن، ط ٢٠٠٨، ص ٣٠.

^{١٦} حدد أبو الفداء معالم جزيرة العرب فقسمها إلى خمسة أقسام هي: تهامة، ونجد، والحجاز، وعروض، ويمن، وأما الحجاز فهو عنده جبل يقبل من اليمن حتى يتصل بالشام، وفيه المدينة وعمان، وسمي الحجاز بذلك لأنه يحجز بين نجد وتهامة، أو لأنه احتجز بين الجبال، فاعدته مكة، لا يستوطنها ذمي ولا مشرك، للمزيد أنظر: عماد الدين إسماعيل بن محمد المعروف بأبي الفداء، تقويم البلدان، دار صادر، بيروت، لبنان، دت، ص ص ٧٩، ٧٨؛ زكريا بن محمد بن محمود القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، لبنان، دت، ص ٨٤.

^{١٧} ابن بطوطة، نفس المصدر، ص ٣٠.

بينما سلك آخرون مسالك أخرى ضمن الركب المصري، نظرا لتوافقها وطريق الحجاج المغربية، وهو ما أكده العياشي في رحلته وصفا الحركة بميناء المويح الذي كان ينزل به الحجاج العابرين بين مصر والحجاز عبر بحر القلزم (البحر الأحمر)، محددًا في وصفه هذا سعر السفر للراكب الواحد بسبعة قروش ونصف من مصر إلى المويح^{١٨}.

مصادر مياه الحجاز وأبارها:

من بين المجالات الهامة التي ركز عليها أغلب الرحالة في كتاباتهم، وقوفهم عمليا على ما عاينوه بأنفسهم، من منابع المياه والآبار، والخزانات التي استحدثت لتجميعها وجعلها في متناول الحجاج، كونها تعد العصب الرئيس في هذه الرحلة التي تهفو إليها الأفتدة، لأن فقدانها أو عدم تحديد مواقعها، يترتب عنه مخاطر جمة، أبرزها على الإطلاق فقدان الأنفس^{١٩}، وقد حدد ابن بطوطة بعضها بتبوك فقال: "بها عين ماء لا ينضب ماؤها، وتبقى الجمال حولها أربعة أيام للراحة والسقاية، وتكون سقايتهم في أحواض مصنوعة من جلد الجاموس، ويملؤون القربة مقابل دراهم للسقاين"^{٢٠}، وزخرت المدينة المنورة^{٢١} بدورها بمجاري مائية ناتجة عادة عن تشكل السيول إذا كثرت الأمطار، فكثيرا ما يخرج أهل المدينة للتنزه بها، منها وادي العقيق^{٢٢}، وهو من المواقع التي رعبت الكثير من الأحاديث النبوية على زيارته، ففي الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنه، قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم بوادي العقيق يقول: "أتاني الليلة أت فقال صلّ في هذا الوادي المبارك"^{٢٣}.

^{١٨} أبو سالم عبد الله العياشي، الرحلة العياشية، حققها وقدم لها سعد الفاضلي وسليمان القرشي، دار السويدية للنشر والتوزيع، الامارات العربية المتحدة، ط٢٠٠٦، ص ٣٢٣.

^{١٩} قنديل، المرجع السابق، ص ٤١.

^{٢٠} ابن بطوطة، المصدر السابق، ص ٣٠.

^{٢١} اشتهرت بتسميات عدة منها، يثرب وهو الاسم الذي عرفت به قبل الإسلام قال ابن خلدون: "هي من بناء يثرب بن مهلائل من العمالقة وبه سميت، وطيبة لانتشار البخور من الصوغ والرائحة الطيبة بها مقارنة لغيرها من المناطق الأخرى، وعليه انتشرت بها طيبة ورائحة عطرية وإن لم يكن فيها شيء من الطيب البتة، ولهذا سميت بهذه التسمية، للمزيد أنظر: الحموي، نفس المصدر، ص ٧٢؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ص ٦٣٤؛ عبد الرأب حامد عبد الرحيم بن سلمان الغزنائي، تحفة الألباب ونخبة الاعجاب، تحقيق اسماعيل العربي، دار الجيل بيروت لبنان، واد الأفاق الجديدة المغرب الأقصى ط ١٤١٤/١٩٩٣م، ص ١٥٠.

^{٢٢} قيل سمي بالعقيق لحمرة موضعه، وهو وادي كبير غربي المدينة، بينه وبين هذه الأخيرة أربعة أميال وراء الحرة، أنظر: محمد بن محمد أحمد الحسين بن ناصر بن عمر الدرعي، مخطوط الناصرية، ج ٢، نفس المصدر، ص ص ٧١، ٧٢.

^{٢٣} جاء في الحديث الذي رواه الحميدي عن الوليد وبشر بن بكر التنيسي، قالوا حدثنا الأوزاعي عن يحيى عن عكرمة أنه سمع ابن عباس رضي الله عنهما يقول: إنه

أما أبار المياه ومصادرها بمكة فكانت بئر زمزم أشهرها وأقدسها وأطيبها على الإطلاق، فهي التي سميت بهذا الإسم لكثرة مائها، وهو ما عبرت عنه هاجر غداة انبعاث أول ماء البئر، حين قالت زم زم، أي كف عن التدفق بعد أن عجزت عن الحد من قوة تدافعه، وقد استلهم الزائرون لبقعته، والمغتربين من زلاله، ذلك العطاء الرباني الممنوح للأوائل، فوجب حسبهم شكر الواهب، في ديمومة عطائه ونعمائه^{٢٤}.

وبالمدينة البئر المتواجدة غرب مسجد قباء، وهي بئر مأوها غزير يستقى منه، فكثرت على أطرفها أنواع من الفواكه والأشجار، منها عنب كثير، فلا يرحل أحد للزيارة في وقته، إلا ويسقى ويأكل منه، حتى ظن بعض العوام أن ذلك من القربات المقصودة بالزيارة والاستشفاء بمائها^{٢٥}.

معالم مناسك الحج والعمرة:

حيث يبدأ القادمون من مختلف الأمصار إحرامهم حسب الميقات المكاني المحدد لكل جهة، منها إحرام الحجاج المغاربة المرافقين للركب الشامي ممن عرجوا على هذه الجهة قبل ولوجهم أرض الحجاز، منها ما ذكره ابن بطوطة في رحلة حجه عبر هذا المسلك قائلاً: (رحلنا من المدينة، وأحرمنا بمسجد ذي الحليفة، وبعدها بخمسة أيام وهو آخر حرم "المدينة" وبالقرب منه "وادي العقيق" و "شعب علي" وبعده "الروحاء" و "الصفراء" ، ونزلنا ببدر ومنها إلى " أم القرى " حيث الوادي المبارك وغاية المنى)^{٢٦}.

وهنا أشار الحجاج الرحالة منهم إلى بعض ما كان يعتقد الكثير من السالكين لمثل هذه الطرق، من سماع المارين منهم بجبل الرمل الكبير بدر لأصوات غريبة، ولأصوات طبول تطرق، ورؤيتهم لوميض نور على بعد أميال كثيرة، فما كان من هؤلاء الرحالة إلا دحضها بالمعينة العملية لذلك، منها ما ذكره العياشي في رحلته بقوله: " إن من الآيات الباقية ما كنت أسمع من غير واحد من الحجاج، أنهم إذا اجتازوا ذلك الموضع يسمعون كهيئة طبل، بما يروا أن الإشارة الدائمة لانتصار أهل

سمع عمر رضي الله عنه يقول سمعت النبي صلى الله عليه وسلم بوادي العقيق يقول: " أتاني الليلة أت من ربي فقال صل في هذا الوادي المبارك وقل عمرة في حجة"، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني،فتح الباري شرح صحيح البخاري، الحديث رقم 1461، "باب قول النبي صلى الله عليه وسلم العقيق واد مبارك"، دار الريان للتراث، القاهرة، مصر، ط١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م ، ص٤٥٩
^{٢٤} الحموي، المصدر السابق، ص١٤٩، ١٤٧.

^{٢٥} العياشي، المصدر السابق، مج ١، ص٣٥؛ المعسكري، المصدر السابق، ص٢١٩، ٢١٨.

^{٢٦} ابن بطوطة، المصدر السابق، ص٣١، للوقوف على المواقيت المكانية الخاصة بكل الحجاج الوافدين من كل الجهات، أنظر الخريطة رقم(٢) ضمن ملاحق هذا المقال.

الإيمان في غزوة بدر^{٢٧}، فما كان منه إلا إثبات ذلك أو نفيه، بصعوده بنفسه إلى قمة الجبل، ثم صاح به لعله يسمع صدى معاكسا، فلم يثبت ذلك مصرحا: "وقد مررت ببدر سبع مرات، وأنا في كلها ألقى البال لذلك، فلم أسمع شيئا أتحققه"^{٢٨}.

ذاكرا أنه سأل عن هذه المسألة بذات، محقق زمانه، شيخه أبو بكر السجستاني الذي أجابه بدوره أنه كان حريصا على تحقيق ذلك، وقد مرّ هذا الأخير أيضا ببدر نحو سبع وعشرين مرة، ولم يسمع شيئا مما ادعاه عديد الحجاج أو يتحقق منه، غير أنه ومع مرور الوقت سمع هو ومن معه بقرب من المكان المذكور صوت طبل يسمع من بعيد، فإذا طبل بعض أمراء الركب، كان متأخرا وراءهم، قائلا: "وتحققنا من ذلك بجلوسنا حتى مرّ بنا الركب، وكثير ممن لم يتحقق ذلك، زعم أنها الطبل التي تعود لذلك العهد"^{٢٩}، مشيرا أيضا بأن المنطقة معروفة بكثرة البرق حتى زعم بعض الحجاج أن "وادي النار" اسمه "وادي النور"، فحرف الناس التسمية لأجل ذلك، قال: "وقد أقيت البال لذلك فكلما قالوا إنهم رؤوا الأنوار، نظرنا فإذا هو بروق (مفردها برق) تحقق في بلاد بعيدة، وتحققنا ذلك بظهوره مرات كثيرة من غير ناحية المدينة، وتارة في ناحيتها، ويتصل خفقانه حتى تحققنا أنه برق"^{٣٠}.

وهنا يتأكد لنا مدى فاعلية الرحلة العلمية في تثبيت الحقائق، ودحض الترهات، وعليه ركزت أغلب الرحلات على وصف الطريق من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة، بالتعريف بمسالكها، وبالأبار الموجودة في طريقها، محددين وضابطين بدقة مناسك الحج في مواقيتها الزمانية، ومواقعها المكانية، وفق ضوابط ومعالم ثابتة، فحدود الحرم المكي تضبط حسب جهاته المختلفة، ف"ذي طوى"، حده من جهة المدينة المنورة على بعد ثلاثة أميال، ومن جهة "جدة" بعشرة أميال، ومن ناحية اليمن سبعة، ومن طريق العراق ستة، ومن جهة الطائف أحد عشر ميلا، أي مجموع أميال قدرت بسبعة وثلاثين ميلا، وبدائرة حول الحرم قدرت بسبعمائة وثلاثة وثلاثين ميلا^{٣١}.

ونظرا لمكانة هذه المدينة التي سماها القرآن الكريم بـ"أم القرى"، فقد استحوذت على حصة كبيرة من مما ورد في مصنفات الرحالة المغاربة فجاءت حسب وصفهم بكونها مدينة كبيرة تحف به الجبال غير الشاهقة من جهات مختلفة، منها جبل أبي قبيس الذي استوعب في أصله "الصفاء"، وهو عندهم أقرب جبل إلى المسجد الحرام،

^{٢٧} العياشي، المصدر السابق، ص ٣٠١.

^{٢٨} العياشي، المصدر السابق، ص ٣٠٢.

^{٢٩} نفسه، ص ص ٣٠٢، ٣٠٣.

^{٣٠} العياشي، المصدر السابق، ص ٣٠٣.

^{٣١} مجهول (مراكشي عاش في القرن ٦هـ/١٢م)، الإستبصار في عجائب الأبصار - وصف مكة والمدينة وبلاد المغرب - نشر وتعليق عبد الحميد سعد زغول، طباعة ونشر دار الشؤون الثقافية العامة - أفاق عربية، دبت، ص ٤.

فهو يقابل بشكل جلي الركن الذي يشرف على الحجر الأسود، أي الجبل المشرف على مكة من شرقها، وكذا جبل قعيقعان المشرف عليها من غربها، وهما يحتضنان بطن محصور بينهما، وهو واد بين منى ومزدلفة، وهو ليس جزءا منهما^{٣٢}، كذا جبل الخندقة، والجبل الأبيض المشرف على بابي "منى" و"الأبار" من أبواب الحرم الشريف، وجبل أبي عمران المحصور بين أبي قبيس وأجياد، فأسماء هذه الجبال والأماكن مازالت تتداول حتى يومنا هذا^{٣٣}.

محددتين حتى بعض الآثار التي وجدوها في الجبال المحيطة بمكة، وهو ما يعبر عن تتبع الرحالة المغاربة لدقائق العناصر التي قد تشكل لغيرهم مادة ذات أهمية، منها ما أورده الغرناطي في تحفته، بالقول أن ما تم العثور عليه بجبال مكة أزجا تحت الأرض فيه صورة من أجمل الصور لرجل قيل أن الرجل المقصود هنا هو أحد مشايخ قبيلة جرهم) وامرأة من صخر، عند رأسيهما لوح رخام كتب عليه الأبيات التالية:

أنا مأوى الفخار ساف بن عمرو وربيع الأنام في كل عصر
كنت في جرهم أعد رئيسا وإذا ما أمرت فأمر أمتري
كان حكمي عليهم وعلى من حج ذا البيت في البرية يجري^{٣٤}.
أما أرباضها^{٣٥}، فهي أربعة:

- ربض الحجون وما حوله من " المروة".
- ربض قيقعان وما حوله إلى باب "ذي طوى".
- ربض أجياد الذي يستوعب شعب أبي بكر، وشعب علي وعثمان رضي الله عنهم، وكذا باب اليمانيين، والأبطح وما والاهما^{٣٦}.

الكعبة المشرفة الشكل والمضمون:

أكثر مادة معرفية ضمنها الحجاج المغاربة، خاصة الرحالة منهم في مصنفاتهم المختلفة، وفق ما شاهدوه أو سمعوا عنه، هو تعظيمهم الكعبة بأحب وأشرف الأسماء

^{٣٢} أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٧٨.

نفسه، ص ص ٦٠٧؛ لتعرف أكثر على مواقع هذه الجبال المحيطة بالحرم المكي، أنظر الخريطة ^{٣٣} رقم (١) ضمن الملاحق المرفقة بهذا المقال.

^{٣٤} أبو حامد بن سليمان الغرناطي، تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، تحقيق إسماعيل العربي، دار الحيل، بيروت، لبنان، دار الآفاق الجديدة، المغرب الأقصى، ط ٢، ١٤١٤/١٩٩٣، ص ١٤٩.

مفردتها ربض، وهي أحواز المدينة أو القرية، إي المناطق المحيطة بها.^{٣٥}

مجهول، المصدر السابق، ص ١٠.^{٣٦}

إليها، وضبط معالمها جزءا بجزء، فمنها أنها تقع في وسط المسجد الحرام، ترى مكسوة بشكل دائم بالحريير الأسود، مرصعة بكتابة باللون الأبيض، لا تخلوا من الطائفين بها أبدا ليلا أو نهارا، وبالمسجد تسعة عشر بابا، تحاذيه مساجد أخرى منها: مسجد قبة الوحي، هي دار خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها^{٣٧}، وعليه فإن ساحة البيت- أي المسجد الحرام- هو ذلك الفضاء الواسع الذي يستوعب الطائفين، فعلى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن عليه جدار، ولا في خلافة أبي بكر، غير أنه ولكثرة الحجاج والمعتمرين وتزاحمهم، اشترى الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه، دورا وهدمها، وزادها لحدود المسجد، وحوط عليها بجدار في مستوى قامته الرجل، فكان أول من بادر بتوسعة الحرم الشريف، وعلى منواله سار عمان بن عفان، وعبد الله بن الزبير الذي جعل فيها أعمدة من رخام، وزاد في أبوابه وحسنه، وصولا إلى عهد الوليد بن عبد الملك الأموي، الذي جلب إليها السواري من مصر، وكساها بالدبياج^{٣٨}، ولازال حال التوسعة مستمر منذ ذلك الحين وإلى يومنا هذا، بفعل تزايد عدد الأئمة لبيت الله.

وقد تباينت عمليات وصف أبعاد الحرم المكي (الكعبة) سرّة الأرض ووسط الدنيا، من رحالة لآخر، حسب الإمكانيات والظروف التي توفرت لكل واحد منهم، فهي عند الرحالة العياشي، كما حدد معالمه من الداخل: مربعة الشكل، بها نقص من جهة الركن الذي عن يمين الداخل إليها مقدار السلم بنحو ثلاثة أذرع، فهو يتخذ مصعدا إلى السطح، أرضه مفروشة بالمرمر الملون، مكسو الحيطان والسقف، مماثلة للكسوة الخارجية من حيث الصنعة والكتابة، مع مخالفة لها في اللون، إذ أن لون الكسوة الخارجية الكعبة سوداء كلها، بينما جاءت الداخلية بيضاء مختلطة بحمرة، مرصعة بمصابيح كبيرة معلقة، بعضها من الذهب والآخر من البلار الأبيض الصافي المكتوب بلون أزوردي، له ثلاثة أعمدة من خشب مصطفة في وسطها ما بين اليمين والشمال، وكل عمود منها سُمّر عليه ألواح في أسفله، وهذا رسم تخطيطي للشكل الذي وجده عليها^{٣٩}:



^{٣٧} ابن بطوطة، المصدر السابق، ص ٣١.

^{٣٨} القزويني، المصدر السابق، ص ١١٣؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ص ٦٢٧.

^{٣٩} العياشي، المصدر السابق، ص ٣٢٣؛ أنظر مخطط رقم (١) ضمن ملاحق هذا المقال.

وقد حدد رحالة آخرون أبعادها بكل دقة، منهم الكاتب المراكشي المجهول صاحب كتاب الاستبصار، الذي ضبط طول وجه الكعبة على مستوى الذي به ببابها (أي جهة الملتزم) من الركن الأسود إلى الركن الشامي بسبعة وعشرين ذراعاً، وبالثالث الباقي من الركن الشامي يوضع منبر الخطيب في يوم الجمعة، ثم يرفع من مكانه في باقي الأيام، ونفس المسافة حدد بها طول الشق الغربي الممتد ما بين الركن اليماني والركن الغربي، في حين جاء طول عرضها الممتد بين اليماني والحجر الأسود بواحد وعشرين ذراعاً^{٤٠}، وهي متقاربة إلى حد كبير مع ما حدده رحالة آخرون من غير أهل المغرب^{٤١}.

وعليه يبدو لي أن هذه المقاييس تطابقت تارة، واختلفت وتباينت تارة أخرى من رحالة إلى رحالة، وهو ما يدل على حرص كل حاج منهم على نقل صورة دقيقة، تكون أقرب إلى الواقع، حتى يتسنى لمن لم يزر بيت الله الحرام، بتشكيل صورة الكعبة في مخيلته، تدفعه لبذل الجهد لبلوغها، واستغلال المعارف المقدمة له ولغيره في هذا الشأن، بتحديد المسالك الموصلة إليها.

حرص المغاربة فيما عملوا على تدوينه في ذاكرتهم وكذا مصنفاتهم، التعريف بأسواق الحجاز طبيعة ونشاطاً، خاصة على مسار الطريق الرابط بين المدينة المنورة ومكة ذهباً وإياباً، إذ تعددت الموارد التي زخرت بها القرى التي تقع على مسلكه، فكانت المواد المتاجر بها التمور والأطياب، كما صادف الحجاج ما كان يتم بيعه بها من مختلف الأرزاق والغلال، وبخاصة الحبوب والبقول الجافة، والطيب من المسك والبخور، والتوابل^{٤٢}. وهو ما جعل المدينة المنورة مثلاً تأخذ اسم "طيبة" نظراً لكثرة الطيب الذي تفوح به عائرها وأزقتها^{٤٣}، حسب ما رواه زوارها قديماً وحديثاً، رحالة كانوا أو حجاجاً، وهو ما يبرز الدور المحوري للمدينة المنورة في حركة التجارة الرابطة بين مختلف الاتجاهات الموصلة إليها، منها ما كان يأتيها من مدينة السويس التي ترسي بها السفن لتستوعب ما كان يفرغ أو يشحن من السلع

^{٤٠} مجهول، الاستبصار، ص ١٠.

^{٤١} حدد القزويني الأبعاد المختلفة للمسجد الحرام والكعبة المشرفة، فجاءت على عهده وفق النحو التالي: طول المسجد ٣٧٠ ذراعاً، وعرضه ٣١٥ ذراعاً، وجيع أعمدته ٤٣٤ ذراعاً، أما أبعاد الكعبة فطولها ٢٤ ذراعاً، وعرضها ٢٣ ذراعاً، وارتفاعها ٢٧ ذراعاً، أنظر القزويني، المصدر السابق، ص ١١٣، ١١٤.

^{٤٢} سالم سمران سالم الضوي العنزي، طرق القوافل وآثارها في شمال شبه جزيرة العرب، ج ١، الناشر خطوط لنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ٢٠٠٧، ص ١٠٢.

^{٤٣} الغرناطي، المصدر السابق، ص ١٥٠.

والبضائع الواردة من مختلف البقاع، ليحمل بعدها برا إلى مكة والمدينة أو إلى مصر^{٤٤}.

وغالبا ما كان الحجاج يتعرفون على أخبار مكة والمدينة وسائر بلاد الحجاز، من حيث الأمن، وأحوال الأسواق، من حيث رخص السلع أو غلائها، فكثيرا ما صادف الحجاج والرحالة في طريقهم انعقاد الأسواق الأسبوعية، فينزلون بها إما لبيع ما جلبوه معهم، أو تلبية حاجياتهم العاجلة أو الأجلة، فأليها كانت تنزل البضائع والسلع الثمينة، وكذا الثمار والفواكه ومختلف أنواع الحبوب.

وقد أشار العياشي في رحلته إلى الميناء المسمى "المويلح"، وقد نزل فيه بنفسه، فحدد سعر الإيجار الخاص بالركاب، وكذا مختلف أنواع البضائع المحمولة بين مصر والحجاز أو غيرهما عن طريق البحر الأحمر^{٤٥}، فكان بالسبعة قروش ونصف من مصر للمسافر إلى المرسى المذكور، أما السلع خاصة الطعام منها، فبعضه كان يوجه إلى المدينة المنورة، والآخر لمكة المكرمة، وهنا بالذات يبرز دور الأعراب من أمثال تركي وسالم وجهينة في تأمين ونقل تلك المواد سواء بتسويقها أو إيصالها إلى أصحابها^{٤٦}، وهو ما ينم عن الحركية التي تحدثها هذه الفريضة المتمثلة في الحج، في تنشيط الحياة العامة في ربوع الحجاز في الموسم، وكذا العمرة على مدار السنة.

مرافق المدينة المنورة ومزارتها:

نقل الحجاج ومن رافقهم من العلماء والفقهاء والرحالة والكتاب، وصفاً دقيقاً لمرافق المدينة المنورة وللمزارات المستحبة لمرتادي الأماكن المقدسة ارتيادها أو التعرّيج عليها، فأفضلها على الإطلاق بعد المسجد النبوي الشريف مقبرة البقيع، التي تحمل أكثر من دلالة في نفوسهم، في ملحقة بيمين المسجد المذكور، ولا تبعد عن قبره صلى الله عليه وسلم، وقبري صاحبيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما إلا ببضعة أمتار، وقد احتوت تربتها رفاة أغلب الصحابة والتابعين، وعليه عدد المغاربة في مصنفاتهم أسماء الكثير منهم، فلا تعلم مقبرة على وجه الأرض عندهم مكانة تماثلها كونها دفن بها من سادة هذه الأمة وأفضلها عدد كثير، خصوصا الخلفاء ومنهم عثمان بن عفان رضي الله عنه، وأزواج النبي صلى الله عليه وسلم، ما عدا خديجة وميمونة رضي الله عنهما، وأولاده وأكابر أهل بيته، فهناك مسجد صغير قيل أن النبي صلى الله عليه وسلم وقف عنده حين خرج يستغفر لأهل البقيع، وقيل زاوية دار عقيل بن أبي طالب التي دفن فيها كثير من آل البيت، فكان ممن دفن بهذه المقبرة،

^{٤٤} العياشي، المصدر السابق، مج ١، ص ٢٧٥، ٢٧٤.

^{٤٥} أنظر الخريطة رقم (٢) ضمن الملاحق المرفقة بهذا المقال.

^{٤٦} نفسه، ص ٢٩٧.

فاطمة الزهراء وابنها الحسن رضي الله عنهما، ولجهة القبلة يوجد قبر زين العابدين، ومحمد الباقر، وجعفر الصادق وغيرهم كثير^{٤٧}، وذكر آخرون قبر مرضعته حليلة السعدية، وإمام مدرسة الحديث مالك بن أنس^{٤٨}، فقد روي عن هذا الأخير، أنه قال: "دفن بالمدينة أكثر من عشرة آلاف من الصحابة"، سواء بمقبرة البقيع أو بمقبرة أحد أو غيرهما، وقد عدد الدرعي صاحب الرحلة الناصرية بعض فضائلهم فقال: "فهم أول زمرة تحشر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم"^{٤٩}، بل وتبرز خصوصية المغاربة في حرصهم الشديد على تطبيق فقه المدرسة المالكية الذي غلب الأخذ به عند عموم ساكنة بلاد المغرب في تطبيقهم لأداب زيارة مثل هذه الأماكن، فقد ذكر الشيخ العربي المعسكري صاحب الرحلة الموسومة بـ "الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى الحجاز" أنه استند في ذلك غداة وقوفه عند قبر الرسول صلى الله عليه وصاحبيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، على ما أورده كل من ابن فرحون صاحب كتاب "الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب"، وكذا ابن الحاج صاحب كتاب: "مدخل إلى الشرع الشريف" في هذا المجال، مبتدأً بالسلام على النبي صلى الله عليه وسلم من غير رفع الصوت، ثم على أبي بكر ثم على عمر، مقلداً ما أثر عن الإمام مالك في هذا المقام، قائلاً: "السلام عليك أيها النبي ورحمة الله تعالى وبركاته"، ومستدلاً بقوله في هذا الشأن: "لا أرى أن يقف عند قبره يدعو، ولكن يسلم ويمضي"^{٥٠}.

وأخيراً نبه هؤلاء الرحالة إلى وجود علامات-شارات- تستبق الركب الذي عادة ما يكون في مقدمته المحمل(مماثل للهودج)، يتم الاستعانة به في تحديد المسار إلى البقاع المقدسة، كما نصبوا رايات فوق الأبنية للاستدلال بها نهاراً، والمصابيح للاستعانة بنورها ليلاً، بين كل علم وآخر مسافة فرسخ أو أقل، وهي غالباً المسالك التي يقطعها الركب المغربي خوفاً من العطش والضياع، وتهديد قطاع الطرق^{٥١}.

^{٤٧} الدرعي، المصدر السابق، ج ١، ص ١٦.

^{٤٨} المعسكري، المصدر السابق، ص ٢٦٩.

^{٤٩} الدرعي، المصدر السابق، ج ٢، ص ١٥.

^{٥٠} المعسكري، نفسه، ص ص ٢٦٥، ٢٦٤.

^{٥١} العياشي، نفسه، مج ١، ص ٢٧٤.

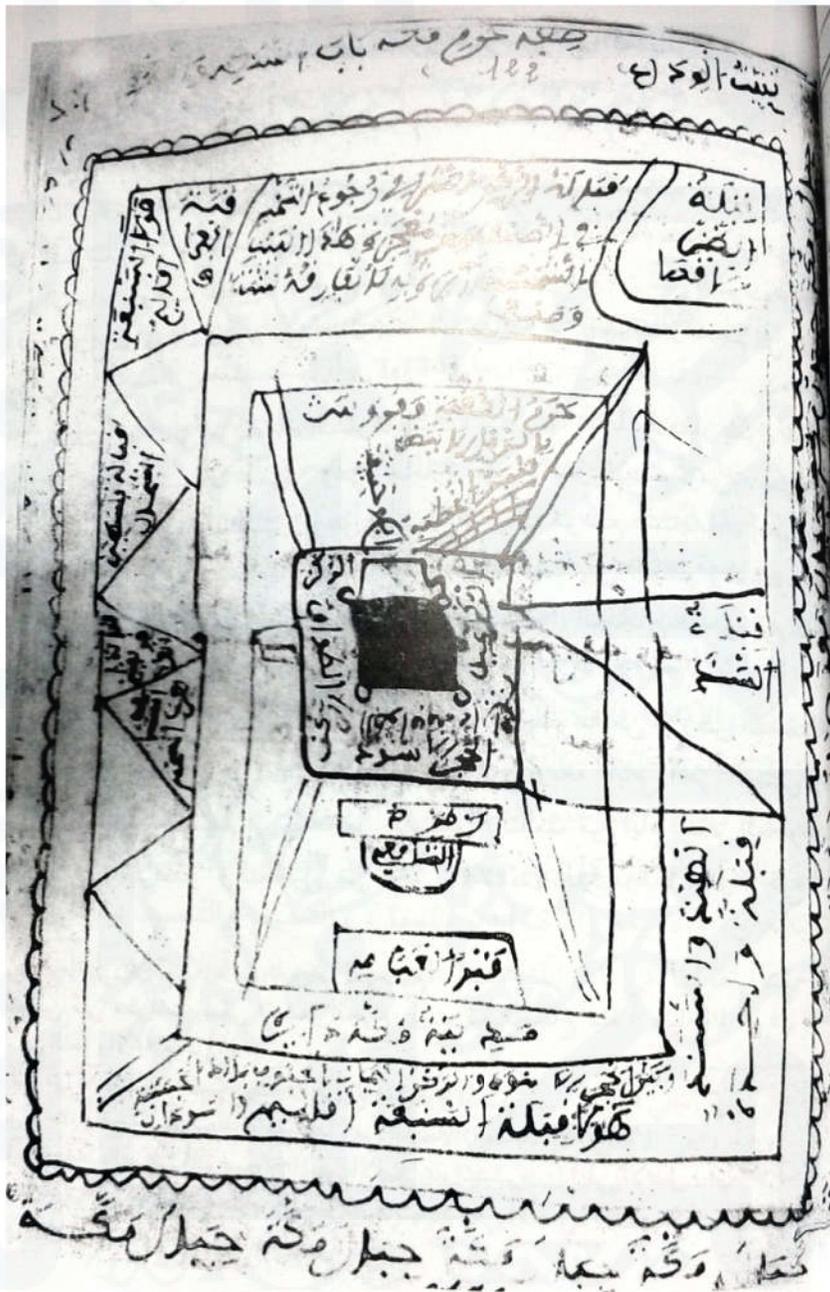
هذا ما حرص المغاربة الذين جعلوا من موسم الحج أداة جمعت بين تحصيل رضى المولى سبحانه وتعالى، والسياحة في الأرض، على إبرازه والتعريف به، خاصة بالنسبة للذين أثروا الرحلة وسيلة للتحصيل العلمي المعرفي، فتدويناتهم المختلفة استفادوا منها وأفادوا بها كل من نحى نحوهم في خوض رحلة العمر، التي كانت تهفو إليها الأنفس ولا زالت، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

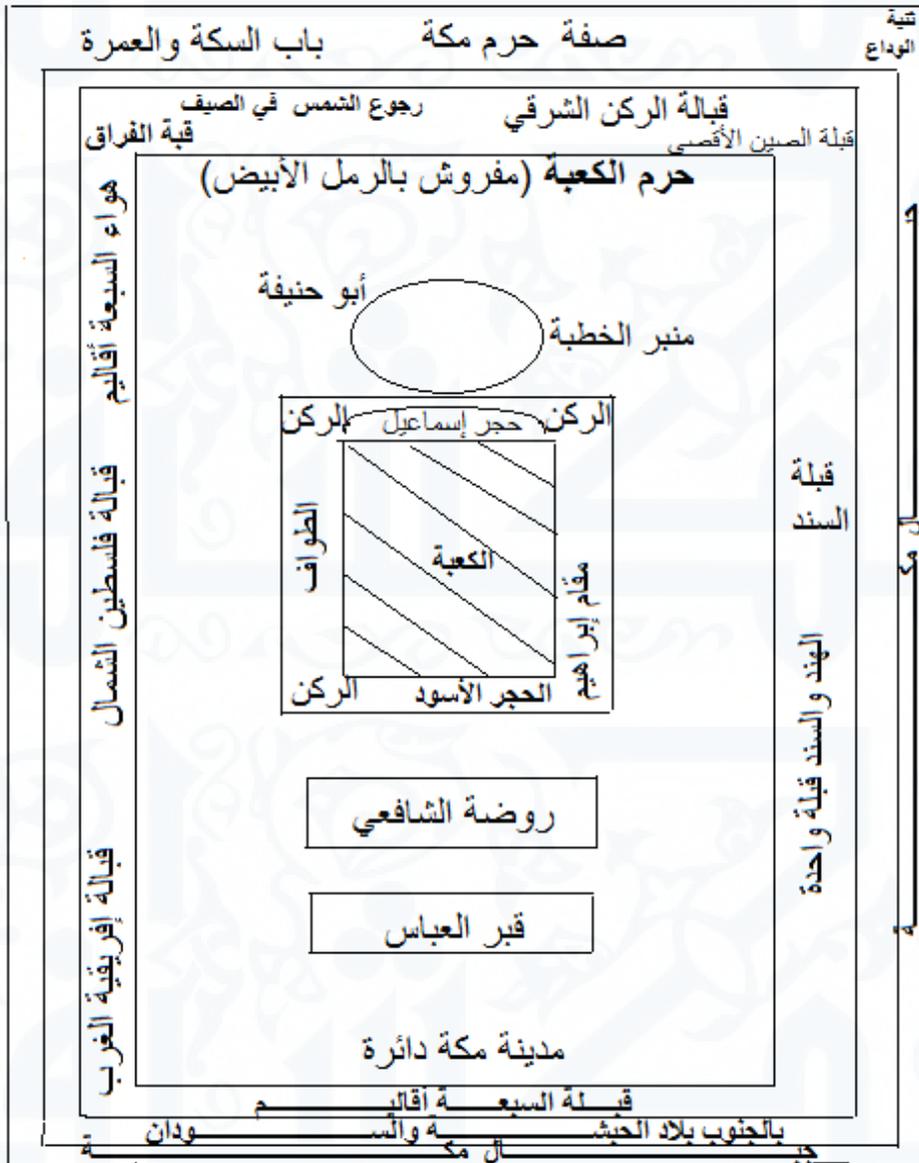
فكانت الفائدة الأكبر من سفرياتهم نحو البقاع المقدسة أو غيرها، هي نقل الأفكار والمعارف التي كانوا يحصلون عليها في أسفارهم، فقد لخص العياشي أهداف رحلته ومن ثم أهداف من نحا نحوه فقال: "قصدي من كتابة هذه الرحلة أن تكون ديوان علم، لا كتاب سمر وفكاهة، وإن وجد الأمر أن فيها معاً، فذاك أدعى لنشاط الناظر فيها، سيما وإن كان صاحب تلوين، وأما صاحب التكوين، فلكل شئ عنده موقع ونفع، لا يوجد في غيره".

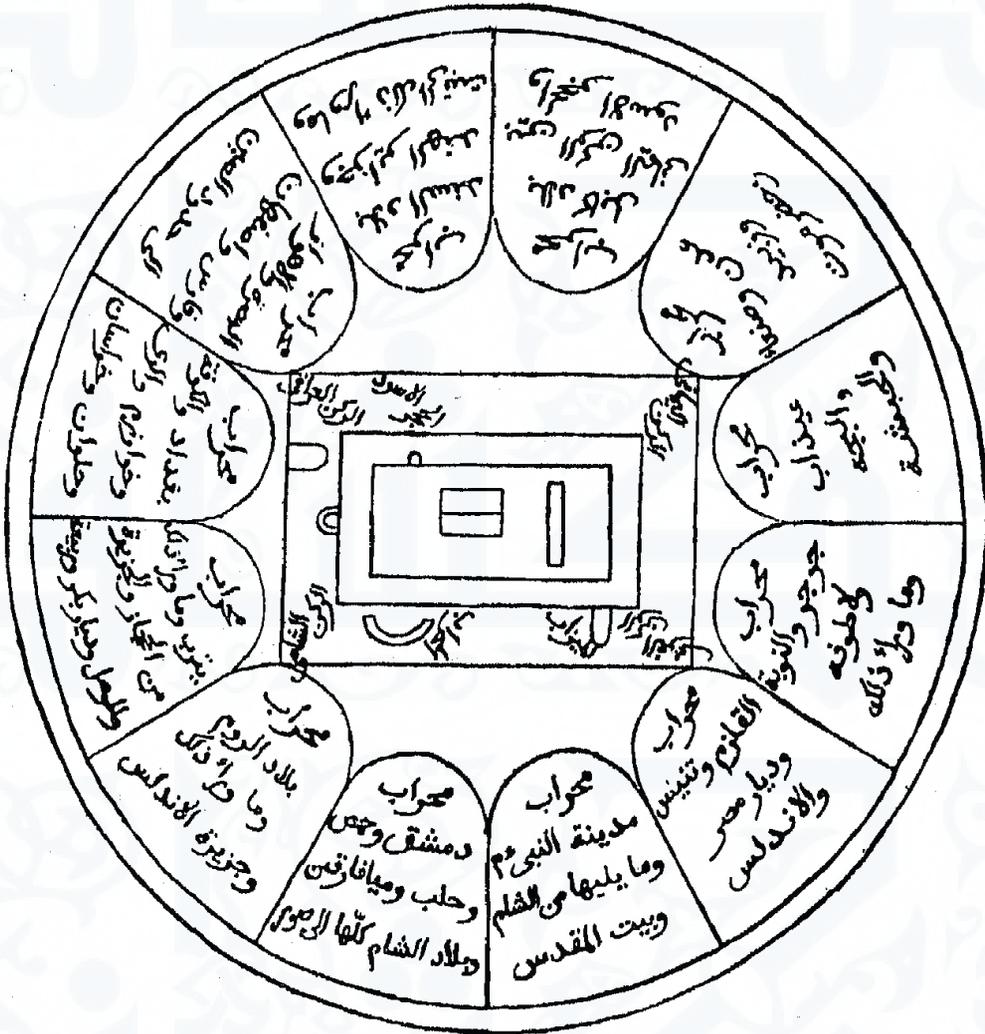
فقد تعرفوا على مختلف المسالك وحددوا معالمها، بما يسمح لكل من رغب في عقد نية الحج أو العمرة لإتباع هذه المسارات، بل ضبطوا أدق تفاصيل جغرافية الحجاز، خاصة ما تعلق منها بالجزء الغربي منه، لاستيعابه طرق ركاب الحجاج القادمين خاصة من بلاد المغرب عبر مصر، أو اختلاطهم بالركب الشامي الوافد من الشمال، وهو ما سمح لهم بتوسيع دائرة التعرف على أكثر المناطق من المشرق الإسلامي.

فقد عدّ أدب الرحلة وفق ما ذكر، من الفنون التي تتطلب من صاحبها قدرة كبيرة على الدقة في التعبير، الوصف البيّن لما شاهده وراه، كون صاحبه يركز في تدوينه لما شهده ووقف عليه من مناظر، وعاشه من أحداث، على المحسوس المدرك بحسن اختيار أدق العبارات وأصدقها، حتى يتسنى له نقل صورة أقرب إلى الواقع الذي عاينه، مما يبرز بحق الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، محددًا في نفس الوقت الاحداثيات والمعالم الجغرافية للبلاد التي مرّ بها، فكانت الحجاز بما شكلته في الموروث الوجداني للمسلمين عموماً، والمغاربة خصوصاً، حافزاً لخوض هذه الرحلة التي عكف أصحابها على التأريخ لها من منطلق الإفادة والاستفادة.









^{٥٢} القزويني، المصدر السابق، ص ١١٥.

خريطة رقم (٢): تحدد معالم الحجاز والمواقيت المكانية لمختلف حجاج العالم الإسلامي^{٥٤}



^{٥٤} شوقي أبو خليل، أطلس التاريخ العربي الإسلامي، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط ١٩٨٤، ص ٣٤ بتصرف.

خريطة رقم (٣): موقع الحجاز بالنسبة لأقاليم العالم °°



°° القزويني، المصدر السابق، ص ١٣.

Description of the Hijaz in the pilgrimage of Morocco

Dr.Moussa Haissam

Abstract:

Pilgrimage represents the trip of a lifetime and it is a key means of communication between different regions and throughout the Muslim world.

Given the spiritual and sentimental importance, the supreme purpose of Hejaz trip is performance of the hajj and it is considered as a source of heritage ,historically, geographically and archaeological importance, from which the Moroccans expressed the close association which brought together both sides of the Islamic nation east and west, seeking through below it from within Notes workbooks trip , to transfer the circumstances of the trip to whom waiting for their return, they might die down the fire of passion longing in the hearts of their families when they return whom are dreaming to visit the House of God, and the tomb of the Prophet Muhammad, peace be upon him and his mosque.

This trip formed the encyclopedia included history, geography and heritage through the exact description of the places where the Prophet Muhammad, peace be upon him and his companions had the brunt of their feet, Thus this balance so crammed with books by most of the journey, which led the researchers to identify the capitals of the Hejaz and its land sprawling.

Which worked on exploring it Through my article is marked by the project: Description of the Hejaz in the Moroccan pilgrimage.